

اتجاهات الكتابة التاريخية الصهيونية بعد كامب ديفيد

كتابة تاريخ اليهود فى مصر

أ. ط . قاسم عبد قاسم

كانت الكتابة التاريخية ، وما تزال ، من أهم الأسس التى قامت عليها الحركة الدعائية الصهيونية ؛ فقد أوصى « تيودور هرتزل » بإحداث أكبر قدر من الضجة حول " القضية اليهودية " من خلال الفن والتاريخ . فالفن ؛ بكل أشكاله وصنوفه القولية والشكلية والتمثيلية ، يتسرب إلى الوجدان بحيث يرسخ صورة تثبت مع مر الأيام . وقد حدث بالفعل أن أنتجت الحركة الدعائية الصهيونية كمًّا هائلاً من الأعمال الفنية التى ركزت على تحسين صورة اليهودى فى عيون العالم . وظهرت الأفلام والمسرحيات والتمثيليات وأنماط الفن التشكيلى ، والأعمال الموسيقية والقصائد تسعى فى هذا الاتجاه . ومن ناحية أخرى ، كانت هذه الأعمال تسعى لتكريس نمط " اليهودى الضحية " الذى يلاحقه الاضطهاد فى كل مكان وزمان ، وهو ينتظر الخلاص النهائى الذى حققته الحركة الصهيونية ومشروعها الاستيطانى فى فلسطين . وفى غمار ذلك تم السطو على التراث الفنى العربى ، والتراث الشعبى العربى خاصة ، ونسبته إلى " الشعب اليهودى " الذى خلقته الدعاية الصهيونية من غياهب الأوهام والأساطير .

وفى خط موازٍ سارت الكتابة التاريخية الصهيونية . فقد حاول عدد من المؤرخين الترويج لفكرة تقول إن الحركة الصهيونية رمز لنهاية التاريخ ، وترى فيها أيضاً التحقيق النهائى لتحرير اليهودى من حياة الشتات ونهاية لحياة المنفى ، وبداية لاستقرار " الشعب اليهودى "

فى أرض الميعاد التى اضطر للعيش بعيداً عنها على مدى ألفى سنة . وحاول أولئك المؤرخون تصوير فكرة الصهيونية باعتبارها الامتداد العلمانى للفكر الخلاصى فى الديانة اليهودية . بل إن بعضهم صور الحركة الصهيونية على أنها حركة خلاص علمانية فى الفكر والتنفيذ . وحاول أولئك المؤرخون تصوير فكرة الصهيونية على أنها حركة خلاص علمانية فى الفكر والتنفيذ . ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن زعماء الصهيونية استغلوا فكرة دينية هامة فى الدين اليهودى ، هى فكرة الخلاص ، وروجوا لتنفيذ هذه الفكرة بوسائل علمانية عن طريق الدعاية ، فضلاً عن استغلال الظروف السياسية العالمية المضطربة لتنفيذ سياسة الاستيطان الصهيونى فى فلسطين .

ويرى هذا الفريق أن الحركة الصهيونية هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأحداث التاريخية التى بدأت بالسبى البابلى . ويقولون بحتمية ظهور الصهيونية ويفسرون قيام دولة إسرائيل باعتباره تحقيقاً لرغبة كامنة فى روح اليهودى منذ زمن سحيق ؛ هى رغبة العودة إلى إسرائيل، ويرون فى قيام الدولة اليهودية تحقيقاً لوعد الخلاص الوارد فى سفر التكوين . بل إن بعض المؤرخين الصهاينة زعموا أنهم قد أسسوا مايسمى " علم التاريخ الصهيونى الجديد " . وقد استخدم " يعقوب تالمون " عميد المؤرخين الصهاينة مزيجاً من التاريخ والخرافات وهو يتحدث عن " إنجازات الحركة الصهيونية " ، وذهب إلى حد القول بأن الصهيونية باعتبارها حركة حتمية لاتخضع للمقاييس " التاريخية " المتعارف عليها ؛ إذ إنها أدت مهمة مقدسة تخرج عن سياق التاريخ meta historical ، هى مهمة إعادة شعب إسرائيل إلى أرضه . ولكن الحركة الصهيونية اصطدمت ببعض العقبات " التاريخية " من جانب " ... البريطانيين المخادعين ، والمقاومة المسلحة من جانب السكان المحليين البدائيين ... " . ويقول تالمون - فى جرأة يحسد عليها - إن الصهيونية تجاوزت هذا كله واستطاعت أن تبنى دولتها " دون أن تلجأ إلى العنف " ؛ فقد تحمل الصهاينة عبء القيام بمهمة مقدسة فرضتها الأقدار بشكل حتمى هى مهمة إعادة اليهود إلى أرض الميعاد . وكان لابد أن تتعارض هذه المهمة المقدسة

المحتومة والخارجة عن السياق التاريخي مع بعض الأوضاع التاريخية الناجمة عن وجود الفلسطينيين على أرض إسرائيل . وهكذا يتم تفسير المذابح التي جرت على الفلسطينيين والطرده الجماعى على أنه تنفيذ لمشيئة إلهية لا يمكن الفكك منها .

بل إن المؤرخ الصهيونى " جيرشون شيلوم " يحاول اختلاق علم صهيونى جديد يقوم على أساس التأصيل التاريخى لغزوات إسرائيل وتوسعاتها هو علم " الثيولوجيا السياسية " ، وربما كان من الأنسب تسميته علم " الأساطير السياسية " ؛ وهذا هو لب الموقف الصهيونى من استخدام الكتابة التاريخية ، وهو موقف يحاول الترويج للأسطورة السياسية التى هى مزيج من الأفكار الدينية والحرافة وبعض الأحداث التاريخية التى يتم تفسيرها لصالح بنية الفكر الصهيونى . وفى الوقت نفسه تحاول الصهيونية من خلال التاريخ ، الذى يحمل مصداقية ذاتية فى بنيته المعرفية ، أن تمسح دور العرب التاريخى ، أو إلغاء وجودهم التاريخى ذاته . والأمثلة على ذلك كثيرة متواترة لايسمح المجال بسردها .

وقد أخرجت المطابع سيولاً من الكتب والدراسات " التاريخية " تروج لفكرة " العشب اليهودى " و " الحضارة اليهودية " و " العبقرية اليهودية " ، وتصطنع لليهود تاريخاً وحضارة مستقلين عن تواريخ وحضارات الشعوب التى عاشوا بينها . ويمكننا ، على سبيل المثال ، أن نلاحظ ذلك فيما كتب عن تاريخ مصر الفرعونية ، والشعوب العربية القديمة ، وتاريخ حوض البحر المتوسط الشرقى القديم . فقد زعموا أنهم بناء الأهرام ، وصانعو حضارة العرب القدماء مثلما ذكر إسرائيل ولفنسون فى كتابه عن " العرب واليهود فى الجاهلية وصدر الإسلام " عندما زعم أن اللغة والشعر العربى القديم من أفضال اليهود على العرب (كذا) . ومن خلال ما كتبه " يعقوب مان " و " جوتيين " ، وأشتور ، ومارك كوهين ، وسيفان ، ويشوع براور ، وينفنستى ... وغيرهم ترددت نغمة قوية تقول إن اليهود شعب صاحب حضارة وتاريخ تليد تمكن بفضلهم من الحفاظ على الهوية اليهودية طوال ألفى سنة . بل إن جوتيين ذكر فى مقدمة كتابه : " Arabs and Jews in history " إن خروج اليهود من المنطقة العربية سببه تخلفها بسبب سيطر الغرباء عليها طوال ألفى سنة ، وأن عودة إسرائيل إبذان ببدء الرقى والتقدم فى هذه المنطقة .

هكذا استخدمت الحركة الدعائية الصهيونية معطيات الدراسة التاريخية فى إطار التبشير الإيديولوجى لما ارتكبته من أفعال . وكانت بؤرة هذا التبشير الإيديولوجى هى الرغبة فى تهينة الرأى العام لقبول فكرة لم شمل الطوائف اليهودية التى تعيش فى الشتات على أرض فلسطين التى زعموا أن الشعب الذى يسكنها شعب بدائى لا يقدر على صياغة مشروع حضارى فوقها من ناحية ، كما أنها ليست أرضه وإنما هى أرض اليهود الذين عانوا طويلاً من الشتات والاضطهاد من ناحية أخرى .

وقد ظل هذا المنحى فى اتجاهات الكتابة التاريخية الصهيونية محل رعاية زعماء الحركة وقادتها بعد قيام الدولة وحظى يهود المنطقة العربية بدراسات كثيرة فى هذا الاتجاه الذى أخذ يركز على تصوير الطوائف اليهودية فى البلاد العربية باعتبارها جزءاً من الشعب المنفى على أرض غريبة كانت تنتظر الخلاص الذى حققته الصهيونية بإقامة دولة إسرائيل لكى تهاجر إليها . ومنذ سنة ١٩٤٨ وحتى قيام أنور السادات بزيارة إسرائيل وعقد معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩ ، لم يكن هناك من يجزؤ فى إسرائيل على الإشارة إلى تاريخ يهود البلاد العربية قبل سنة ١٩٤٨ . ولم يكن يهود مصر استثناء فى ذلك بطبيعة الحال .

والكتاب الذى تناقشه فى هذه الدراسة يتعرض لهذا الموضوع ؛ والكتاب عنوانه :

“ The Dispersion of Egyptian Jews ”

Culture, Politics and the fermantion of a modern diaspora

وهو من تأليف Joel Beinin ، وصادر عن مطبعة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٩٨م

ويوحى عنوان الكتاب بدلالات مثيرة عن اليهود المصريين ، كما أن مؤلفه يقدم نفسه باعتباره من ضمن اتجاه فى التدوين التاريخى يعارض اتجاهات الكتابة التاريخية الصهيونية التى عرضنا لخطوطها العريضة فى السطور السابقة . وعلى الرغم من أن المؤلف يتحدث فى كتابه عن " اليهود المصريين " ؛ فإن هناك خلافاً بيننا وبينه حول هوية أولئك " اليهود المصريين " الذين يتحدث عنهم ؛ فقد تغيرت بنية الطائفة اليهودية المصرية منذ القرن التاسع

عشر بفعل الهجرات الكثيرة لليهود الذين جاؤا إلى مصر من شتى أرجاء الدولة العثمانية لاسيما بعد أن تم افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م بحثاً عن فرص الكسب من تجارة القطن المزدهرة . ومنذ ذلك الحين كانت غالبية " اليهود المصريين " من الأجانب الذين يحملون جنسيات أوربية . وبحر متوسطية عديدة ، يتحدثون بلسان أوربي ، وينتمون إلى ثقافة أوربية . أما يهود مصر الأصل ، فكان عددهم قليلاً ، ومستواهم الاجتماعى والاقتصادى متواضعاً ، كما كانوا يتحدثون العربية ويعتبرون أنفسهم من نتاج الثقافة العربية .

وتاريخ اليهود فى مصر قديم موغل فى القدم . وقد أثبتت دراسات عديدة عن اليهود فى مصر عبر عصورها التاريخية الطويلة أنهم كانوا جماعة مصرية تعتنق ديناً يختلف عن دين الأغلبية ولكنهم شاركوا بقية المصريين حياتهم الاجتماعية ، ونشاطهم الاقتصادى ، وثقافتهم . وربما كون مفيداً أن نذكر أنفسنا بأن اليهودية ديانة وليست قومية وأن أتباعها أتباع دين شأن أتباع أى دين آخر وليسوا شعباً أو قومية . ومن ثم فإن اليهود فى مصر كانوا جزءاً من النسيج الاجتماعى المصرى ، كما كانت ثقافتهم الفرعية أحد روافد الثقافة المصرية العامة .

وبعد الفتح الإسلامى لمصر ظل اليهود المصريون يشكلون لبنة هامة فى البنية الاجتماعية المصرية على الرغم من أن عددهم كان ضئيلاً باستمرار . ويمكن تفسير هذا الأمر فى ضوء الطبيعة غير التبشيرية للدين اليهودى من ناحية ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى حكمت التطور التاريخى لأعداد اليهود المصريين من ناحية أخرى . وربما كانت الغالبية العظمى من يهود مصر تتركز فى الأسكندرية التى كانت عاصمة مصر قبل الفتح ، وقد تراوحت أعدادهم فى هذه المدينة بين أربعين ألفاً وسبعين ألفاً ، وربما عاشت أعداد ضئيلة منهم فى بقية أنحاء مصر آنذاك .

وهناك أسباب تاريخية كثيرة تدعونا إلى استنتاج أن أعدادهم قد زادت فى مصر بعد الفتح الإسلامى ، ومع ذلك فإن عدد اليهود المصريين بالنسبة إلى عدد المسلمين لم يتجاوز نسبة واحد إلى المائة حسبما تظهر الدراسات التى قامت على أوراق الجنيزا التى تغطى الفترة مابين القرن

التاسع والقرن الثاني عشر الميلاديين ، والدراسات التى قامت على أساس أماكن وجود المعابد اليهودية فى مصر .

وربما تكون ظروف اليهود المصريين التاريخية قد تحسنت بعد قيام الدولة الفاطمية (٩٦٩ - ١٧٧١م) ، إذ جاءت هجرات يهودية كثيرة إلى مصر آنذاك ، كما أن الحروب الصليبية (من القرن ١١ إلى القرن ١٣م) . ومع ذلك ظلت أعداد اليهود فى مصر ضئيلة بشكل لافت للنظر . وربما كان عدد يهود مصر عند نهاية القرن الثالث عشر يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألفاً . وقد اعتنق عدد كبير منهم الإسلام فى عصر سلاطين المماليك بحيث كان عددهم يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف فى نهاية ذلك العصر .

ومنذ أواخر القرن الخامس عشر بدأت الهجرات اليهودية تفد إلى مصر . وقد ذكر الرحالة اليهودى عوبيدا أنه وجد بالقاهرة آنذاك حوالى خمسين عائلة يهودية أسبانية ممن أجبرتهم السلطات الكاثوليكية على نبذ دينهم . وقد فروا إلى القاهرة لكى يعودوا إلى الديانة اليهودية .

وطوال تلك الفترة ، وعلى الرغم من هجرات اليهود إلى مصر ، كان " اليهود المصريون " طائفة متماسكة دينياً ومتعاونة اجتماعياً وثقافياً . وكانت العربية لسانهم ، كما كانت عاداتهم وتقاليدهم وسائر ممارساتهم داخل الإطار العام للثقافة العربية فى مصر .

ولكن ماحدث بعد القرن التاسع عشر غير من بنية " اليهود المصريين " بحيث لم يعودوا "مصريين " ، وإنما طائفة من المهاجرين المتمصرين بالإقامة دون أى ارتباط بالمجتمع المصرى وثقافته .

هذه نقطة الخلاف الأولى مع المؤلف ، ويحسن بنا أن نعود مرة أخرى إلى الكتاب .

بعد زيارة السادات لإسرائيل ، ثم توقيع كامب ديفيد ، بدأ نوع من الاهتمام البراجماتى بدراسة تاريخ " اليهود المصريين " على الجانب الإسرائيلى . فقد كان هناك نوع من " الحجل " فى أوساط يهود المنطقة العربية الذين هاجروا إلى إسرائيل يمنعهم من الحديث عن تاريخهم فى

البلاد العربية ، ولكن بتوقيع المعاهدة جعل اليهود الذين هاجروا من مصر محط اهتمام من جانب الباحثين اليهود " المصريين " أنفسهم ، لأنهم ظنوا أن هذا يمكنهم من لعب دور الوسيط بين مصر وإسرائيل . وعلى الجانب المصرى كان الاهتمام بتاريخ اليهود المصريين سابقاً على الزيارة والمعاهدة لأسباب أكاديمية ووطنية أيضاً ؛ فقد كتب باحثون عن اليهود فى مصر عبر تاريخها الطويل . بيد أن ما يلفت النظر فى موقف الكتاب الإسرائيليين من البحث فى هذا الموضوع هو النغمة البراجماتية العالية من ناحية ، وعدم الدقة التى تصل إلى التزييف من ناحية ثانية ، وأنهم جميعاً لم يكونوا من المصريين حقاً من ناحية ثالثة .

يعطينا المؤلف نموذجاً جيداً عن هذا النمط من الكتابات التاريخية ، وهو كتاب " جودرون كرايمر " المعنون " اليهود فى مصر الحديثة ١٩١٤ - ١٩٥٢ " الذى تتحدى فيه مؤلفته اتجاه التدوين التاريخى الصهيونى الذى يميل إلى اعتبار أن قيام دولة إسرائيل كان هو التحقيق النهائى لتاريخ اليهود المصريين من جهة ، كما تتحدى اتجاه التدوين التاريخى المصرى الوطنى الذى يرى بأن كل شىء فى تاريخ يهود مصر كان على مايرام وكان يمكن أن يستمر هكذا لو لم يعمل اليهود لصالح الحركة الصهيونية من جهة أخرى . ويبدو أن المؤلف يتبنى هذا الاتجاه فى كتابه الذى يناقش تشتت اليهود المصريين فيما بين سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٥٦م .

ويتحدث الكاتب عن قدم الوجود اليهودى فى مصر . وقد عاش اليهود ، كما أوضحنا ، فى مصر منذ فترة طويلة قبل الفتح الإسلامى . وبعد الفتح كانوا جزءاً من النسيج الاجتماعى والثقافى فى إطار الحضارة العربية الإسلامية . وقد انقسم اليهود إلى طائفتين رئيسيتين هما الربانون ، والقراءون ، ويحسن بنا أن نعرض بشيد من التفصيل لهاتين الجماعتين ، كما نشير إلى الطائفة الثالثة ، وهم السامرة الذين كان عددهم ضئيلاً فى مصر آنذاك .

فلم تكن الجماعة اليهودية طائفة واحدة ؛ إذ انقسم اليهود إلى طوائف مذهبية مختلفة طوال تاريخهم . ويدور الخلاف بين هذه الطوائف حول مدى الاعتراف ، أو عدم الاعتراف ، بأسفار التوراة والتلمود . وكانت الجماعة اليهودية المصرية بعد الفتح الإسلامى ، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك على الأقل ، موزعة بين طوائف ثلاث هى الربانون والقراءون والسامرة .

والريانون (أو الريون ، أو الريانيون) أشهر هذه الطوائف وأكثرها عدداً . واسمهم مشتق من كلمة " ريانيم " العبرية (ومعناها : الإمام أو الحبر ، أو الفقيه) . ويؤمن جمهور هذه الطائفة بما ورد فى التلمود من تفسير وآراء حول العقيدة والقانون والتاريخ الدينى لليهود ويضم التلمود ثلاثة وستين سقراً تم تأليفها فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، ويتألف من قسمين " المنشأه " (أى المثنى) أو الكتاب الثانى بعد التوراة ، وهو متن كتابات أخبار اليهود ، " والجمارا " أى شروح ماورد فى المتن ، ويعنى مصطلح " التلمود " التعليم .

وكان الريانون أكثر يهود مصر عدداً عبر العصور . أما القراعون فكانوا أقل عدداً ، ولكنهم كانوا يتمسكون بالتوراة ، وقد اشتق اسمهم من كلمة عبرية هى « قرأ » (بفتح فضم عدداً ثم ألف ساكنة) لأنهم لم يعترفوا بغير المقرأ (أى التوراة) ولم يتقيدوا بالتلمود ، كما أنهم عرفوا باسم « أهل الدعوة » أو « أصحاب الدعوة » . وهناك احتمال كبير بأن نشأتهم ترجع إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين حيث تأثروا بآراء المعتزلة .

ولم يترك الريانون فرصة لمهاجمة القرائين ، فاتهمهم بالكفر وحرموا الزواج منهم والاتصال بهم . أما السامرة ، فكانوا أقلية ضئيلة العدد بين يهود مصر . وقد نشأت هذه الطائفة فى فلسطين بعد تدمير مملكة إسرائيل التى انشقت عى مملكة سليمان الحكيم بعد وفاته . ويعتبرهم اليهود حشالة من الأجانب الذين تعاونوا مع أعداء اليهود . ولا يؤمن السامرة سوى بالأسفار الخمسة التى تمثل القسم الأول من التوراة إلى جانب سفر يوشع وسفر القضاة ؛ بيد أن نصوص هذه الأسفار تختلف عن نصوص الأسفار لدى غيرهم من اليهود . وينكرون نبوة كل من أتى بعد موسى باستثناء هارون ويوشع ، وتختلف قبلتهم عن قبلة بقية اليهود ، إذ أن قبلتهم جبل جريزيم بنابلس فى فلسطين وليست بيت المقدس ويزعمون أن الله كلم النبى موسى على هذا الجبل . وكان لهم بالقاهرة حى خاص بهم ومعبد خاص ذكره المؤرخ تقي الدين المقرئى . وقد اندمجوا فى المجتمع المصرى أكثر من غيرهم .

هذا هو الإطار العام للوجود التاريخي للجماعة اليهودية المصرية ، ولم يطرأ عليه تغيير يذكر سوى فى القرن التاسع عشر بعد فتح قناة السويس وازدهار تجارة القطن من ناحية ، وتدهور أحوال الدولة العثمانية من ناحية أخرى .

وكانت الجماعة اليهودية المصرية بعد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تتحدث العربية ويعيشون فى القاهرة فى الحى اليهودى وفى الأسكندرية فى حى الميناء . بيد أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن هناك جيتو سكنى ، أو جيتو حرفى ، لليهود المصريين فى هاتين المدينتين ، أو فى مدن الأقاليم التى عاش بها اليهود أيضاً .

وفى سنة ١٩٤٧م ذكر الإحصاء الرسمى أن عدد اليهود فى مصر بلغ ٦٥,٦٣٩ نسمة ، ولكن تقديرات الباحثين ترتفع بهذا الرقم سنة ١٩٤٨م إلى ما بين ٧٥ ألفاً و ٨٠ ألفاً كان اليهود المصريون المتحدثون بالعربية ، والذين عاشوا فى مصر فترة طويلة ، لايزيد على عشرين ألفاً . وهنا تكمن نقطة الضعف الأساسية فى كتاب " جويل بينين " الذى ناقشه فى هذه الدراسة . ذلك أن ثلاثة أرباع اليهود الذين عاشوا فى مصر سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٦م لم يكونوا مصريين .

لقد تسببت هجرة اليهود من أوروبا وعالم البحر المتوسط وأقاليم الدولة العثمانية إلى مصر فى تغيير بنية الطائفة اليهودية فى مصر من النواحي العرقية والثقافية والاقتصادية والسياسية بسبب تعدد جنسيات المهاجرين ، وتعدد لغاتهم ومشاريهم الثقافية ؛ فضلاً عن تنوع انتماءاتهم السياسية . وكان اليهود القراءون فى مصر سنة ١٩٤٨ حوالى خمسة آلاف ، وتاريخهم الطويل فى مصر جعل منهم أبناء حقيقيين للبلاد طوال الفترة من القرن الثامن حتى القرن العشرين على أقل تقدير ؛ إذ كانت العربية لغتهم كما كانت ثقافتهم هى ذات ثقافة المجتمع المصرى . وعلى الرغم من أن ألمانيا وروسيا وبلاد شرق أوروبا لم تكن تعاملهم باعتبارهم يهوداً ، فإن المجتمع والدولة فى مصر تعامل معهم تاريخياً باعتبارهم من أهل الذمة ، وكان لهم رئيس يمثلهم أمام السلطات الحاكمة طوال عصور تاريخ مصر الإسلامية ، وفى العصر العثمانى أيضاً .

وقد ذكرنا فى السطور السابقة أن اليهود الربانيين اتخذوا موقفًا عدائيًا من اليهود القرائين وحرّموا الزواج منهم ، وقد ظل هذا الموقف ساريًا حتى القرن العشرين عندما ظهرت على استحياء اتجاهات لتقوية الروابط بين الطائفتين .

ولكن هجرة اليهود من غرب أوربا وشرقها جعل اليهود المصريين من الربانيين والقرائين يتوارون فى الخلفية الاجتماعية والثقافية بسبب ارتباط المهاجرين الجدد بالمصالح الرأسمالية الأوروبية من ناحية ، وبالثقافة الأوروبية من ناحية أخرى .

ويقول المؤلف إن يهود غرب أوربا (السفارديم) عرفوا الهجرة إلى مصر منذ زمن موسى بن ميمون الذى قدم إلى مصر ليعمل فى بلاط صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٦٥م فرارًا من حكم الموحدين . وهنا يلفت النظر أن هذه ممارسة شائعة فى التدوين التاريخى الصهيونى - على الرغم من أن المؤلف يزعم أنه ضد هذا الاتجاه - وفى سياق حركة الدعاية الصهيونية ذاتها . وأعنى بهذه الممارسة الشائعة محاولة افتعال سياق تاريخى متصل لأى فعل مستقل يقوم به فرد أو جماعة يهودية فى أى زمان وأى مكان . فلم يكن قدوم موسى بن ميمون إلى مصر آنذاك جزءًا من هجرة " السفارديم " كما يزعم المؤلف ، ولكنها كانت هجرة فرد يبحث عن الأمان والاستقرار بعيدًا عن عواصف السياسة العاتية فى الغرب الإسلامى . وفى ذلك الحين كانت مصر ، تحت زعامة صلاح الدين الأيوبي ، أكثر مناطق العالم الإسلامى استقرارًا وأمنًا (وقد اعتنق موسى بن ميمون الإسلام ، ثم سمح له صلاح الدين بالارتداد إلى اليهودية حينما أخبره أنه اضطر لاعتناق الإسلام . وتولى رئاسة اليهود فى مصر وقد وصفته وثائق الجنيزة بصفات مهيبة) . وعلى أية حال ، فإن ذلك الرجل جاء إلى مصر فى ظروف تشبه الظروف التى جعلت ابن خلدون يجرى إلى مصر بعد ثلاثة ~~هرون~~ هرون تقريبًا .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر زادت هجرة يهود غرب أوربا (السفارديم) إلى مصر بحثًا عن فرص الثراء السريع ؛ ومنهم تشكلت أبرز عناصر النخبة اليهودية فى مصر . وكان معظم اليهود الغربيين فى مصر من أبناء الطبقة الوسطى الذين نعموا فى البلاد بعيشة راضية .

وفى القرن التاسع عشر أيضاً جاء يهود أوروبا (الأشكنازيم) فراراً من الاضطهادات التى وقعت عليهم آنذاك . بيد أنهم كونوا جماعة منعزلة عاشت فى منطقة درب البرابرة بالقرب من وسط القاهرة . وكانت لغتهم التى يتخاطبون بها فى شوارع القاهرة وداخل بيوتهم هى لغة اليديش (وهى مزيج من اللغة الألمانية القديمة وبعض التعبيرات العبرية) . وقد ظلوا على هذا الحال حتى خمسينيات القرن العشرين . بل إنهم شيدوا لأنفسهم مسرحاً خاصاً ، كما كان لهم برنامج خاص فى الإذاعة المصرية يث بهذه اللغة .

هذه التركيبة الجديدة للجماعة اليهودية فى مصر نزعَتْ عنها صفة المصرية ، وبينما ظل اليهود المصريون الأصلاء الناطقين بالعربية يتقهقرون إلى خلفية المشهد ؛ يعانون الفقر واللامبالاة ، كانت الصفة العالمية (الكوزموبوليتانية) تميز الطبقة الوسطى والطبقة العليا من الجماعة اليهودية . إذ كان أبناء هاتين الطبقتين متعددى الثقافات واللغات والانتماءات السياسية ، كما كانت غالبيتهم يحملون جنسيات دول أوربية وبحر متوسطية . وقد عبّر أحد أبناء اليهود القادمين من غرب أوروبا عن هذا الموقف تعبيراً بلاغياً موحياً ؛ إذ قال : " كنا نتحدث الإنجليزية والفرنسية فى المدرسة ، وتكلم الإيطالية فى المنزل ، ونتخاطب باللغة العربية فى الشوارع ، ونسمع الشتائم تصب علينا بالتركية " .

هكذا كانت الجماعة اليهودية جماعة من اليهود المهاجرين إلى مصر فى غالبيتها ؛ إذ كان ثلاثة أرباع يهود مصر حسب إحصاء سنة ١٩٤٧م من الأجانب المتمصرين على حين كان الربع الباقى فقط من المصريين الأصلاء .

وقد حاول المؤلف أن يوفق بين عناصر لا يمكن التوفيق بينها عندما وضع عنوان " الأصالة والعالمية " ليحل بذلك مشكلة اختلاف المكونات التاريخية والعرقية والثقافية بين اليهود المصريين واليهود الوافدين من أوروبا . فقد ظل المصريون مصريين ، وبقي الوافدون غرباء عن البلاد وأهلها . ويرتبك المؤلف وهو يتحدث عن أن ما يلفت النظر فى مكونات " الجماعة اليهودية المصرية " تشتتها الداخلى وانفتاحها على تأثيرات ثقافية متنوعة ؛ مصرية وعربية

وأوربية . وفى تقديرى أن سبب هذا الارتباك راجع إلى أن المؤلف ينطلق من رؤية ترى أن " اليهودية " مرادف للقومية أو الوطنية ، وهو أمر يجافى الحقيقة تماماً . فاليهود أتباع دين وأبناء البلاد التى نشأوا على ترابها . وعندما جاءوا إلى مصر القرن التاسع جاءوا بثقافات البلاد التى وفدوا منها (شأن المسيحيين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والبلجيك وغيرهم) ، وكان لابد لهم أن يكونوا مختلفين عن اليهود " المصريين " فى كل شئ . لقد وقع المؤلف فى برائن إطار الكتابة التاريخية الصهيونية التى حاولت وتحاول خلق " الشعب اليهودى " و " الحضارة اليهودية " من غياهب الوهم والأساطير وجنابات الدعاية والكذب .

فمن الواضح أن هوية اليهود المصريين تكونت من عناصر مختلفة بحيث شكلت الديانة العنصر الأهم فى مكونات الثقافة الفرعية لليهود حقاً ، ولكن هذه الثقافة الفرعية كانت أحد روافد الثقافة المصرية العامة عبر تاريخ مصر . ومن ناحية أخرى كان اليهود المصريون مختلفين عن المسلمين والمسيحيين المصريين بسبب دينهم وثقافتهم الفرعية حقاً ، بيد أنهم كانوا هم نفس المصريين من جوانب عديدة منها : اللغة والصحف والروايات والشعر والانتماء للبلاد وللدولة الوطنية ، وشاركوهم البناء السياسى والاقتصادى والحرف والمهن والاستثمارات والأسواق والجوار والملابس وقائمة الطعام والأفلام والمسرحيات والأغاني ... وما إلى ذلك من مظاهر الثقافة العامة للمصريين .

ولم يكن هذا كله ينطبق على اليهود الوافدين إلى مصر فى القرن التاسع بغرض الإقامة والبحث عن فرص الكسب والاستثمار ؛ فقد كانوا غرباء وظلوا كذلك على الرغم من إقادتهم من الوضع الاقتصادى فى البلاد .

هذه ، إذن ، كانت بنية الجماعة اليهودية فى مصر فيما بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ م . وربما كان السؤال الذى طرحه المؤلف عن كيفية كون اليهود عنصراً من عناصر المجتمع المصرى يبدو مشروعاً من الناحية العلمية . وفى تقديرنا أن مايزيد من مشروعية هذا السؤال أن اليهود فى مصر آنذاك كانوا قسمين ؛ قسم يدخل فى النسيج الاجتماعى المصرى بفضل التراث

التاريخى الواحد ، واللغة والإطار الثقافى ، وقسم آخر يعيش على هامش المجتمع ويشكل فى حقيقته جزءاً من الوجود الأجنبى الذى ازدادت كشافته بمصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وهذا الشطر ، الذى يمثل العدد الأكبر من اليهود آنذاك ، كان فى حقيقته جزءاً عضوياً من الوجود الرأسمالى فى المنطقة العربية وحوض المتوسط . وربما كان هذا الأمر تفسيراً لسؤال آخر طرحه المؤلف عن كيفية تفكك الروابط التى كانت تجمع الجماعة اليهودية المصرية عندما خرجوا من مصر إلى عدة أماكن مختلفة . ذلك أن هذه " الروابط " التى يزعم المؤلف أنها تفككت لم تكن قائمة أبداً ؛ فاليهود المصريون (من الربائين والقرائين) ظلوا على مصريتهم حتى بدأ نشاط العناصر الصهيونية يجتذب بعض أبنائهم . أما اليهود الوافدين من أوروبا فقد غادروا مصر التى لم تكن وطناً لهم ، وإنما كانت مكاناً للعمل والاستثمار .

لكن الكتاب يقدم لنا صورة بانورامية لوجهات النظر التى تناول بها الصهاينة تاريخ اليهود فى مصر والمنطقة العربية والعالم الإسلامى . فقد ركزت الرؤية الصهيونية بعد سنة ١٩٤٨ على الترويج لفكرة أن اليهود عانوا اضطهاداً مستمراً فى العالم الإسلامى . وكان الهدف من هذا التصدى للفلسطينيين الذى لفتوا أنظار العالم إلى أن الحركة الصهيونية اغتصبت أرض فلسطين لتقيم عليها دولة إسرائيل . وكان محور الفكرة الصهيونية يسعى إلى إبراز " صورة تاريخية مزيفة " تقول إنه إذا كانت الحركة الصهيونية قد جردت الفلسطينيين من أراضيهم فإن عدداً مساوياً من اليهود قد خسروا أملاكهم فى العالم الإسلامى عبر التاريخ . وهو ما يعنى ، فى التحليل الأخير ، أنه ليس للفلسطينيين الحق فى استرداد وطنهم !! .

وهكذا تكرر الحركة الدعائية الصهيونية الكتابية التاريخية أداةً للاغتصاب والسطو . وربما يكون مناسباً هنا أن نشير إلى أن عدداً كبيراً من المؤرخين الصهاينة قد نشطوا فى هذا الاتجاه . ولا يمكن أن نتجاهل بصمات هذا الاتجاه فى كتابات برنارد لويس ، وفيشيل ، ومان ، وجويتين ، وأبالون ، وسيفان ، وينفستى ، ويوشع براور ، وآشتور وغيرهم من المؤرخين اليهود الذين تخصصوا فى جوانب مختلفة من التاريخ الإسلامى أو تاريخ اليهود فى العالم الإسلامى .

وهنا اتجاه آخر فى مقابل هذا التيار " البكائى " فى الكتابة التاريخية الصهيونية يشهد المؤرخ الصهيونى " يوشفاط هاركابى " الذى يرى فى الصراع العربى / الصهيونى حول فلسطين مجرد مثال آخر على حالة العداء العربى " التاريخى " تجاه اليهود . ويرى أصحاب هذا الاتجاه أيضاً أن اليهود العرب ، ومنهم اليهود المصريون طبعاً ، كانوا يعملون بنشاط فى خدمة أهداف الحركة الصهيونية . مما جعل لهم حقاً فى المطالبة بمشاركة كاملة فى التاريخ " الوطنى " اليهودى حسب الرواية الصهيونية . وهناك مدرسة فى التدوين التاريخى فى إسرائيل تنجح إلى تصوير تاريخ يهود العالم العربى باعتباره جزءاً من " التاريخ الوطنى اليهودى " واللافت للنظر أن الرواية الصهيونية لتاريخ اليهود العرب تقوم على أكذوبتين كبيرتين : المعاناة والاضطهاد المستمر لليهود فى البلاد العربية من ناحية ، والخلاص الذى حققته لهم الصهيونية بإقامة دولة إسرائيل من ناحية أخرى .

فى مواجهة هذا التصوير البكائى الصهيونى نجد اتجاهات الكتابة التاريخية المصرية فى هذا الموضوع تميل إلى إبراز حقيقة تاريخية مؤداها أن يهود العالم الإسلامى كانوا دائماً أفضل حالاً من اليهود فى أوروبا وأنهم نعموا بمعاملة حسنة على الدوام . فاليهود المصريون ، مثلاً ، كانوا يشاركون مشاركة فعالة فى الأحداث التى جرت على المجتمع المصرى طوال الفترة التى امتدت من الفتح الإسلامى حتى العصر العثمانى على أقل تقدير . وكان لهم نصيبهم فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى باعتبارهم جزءاً من الكل المصرى . وقد اتضح من دراسة وثائق الجنيزا ، والمصادر التاريخية الأخرى ، أن يهود مصر الإسلامية قد عملوا فى حوالى مائتين وخمسين حرفة يدوية ، ومارسوا حوالى مائة وسبعين نمطاً من النشاط فى مجالات الاقتصاد والإدارة والتعليم والطب والتجارة والمال . كما أنهم عملوا فى خدمة الحكومة بدءاً من الوزارة حتى وظائف الإدارة الصغرى . وكانت نسبة اليهود العاملين فى الجهاز الحكومى أعلى من نسبتهم العامة بين المصريين . ونخلص من هذا إلى حقيقة مؤداها أن مزاعم الكتاب الصهيونية بأن يهود مصر والعالم الإسلامى قد عانوا اضطهاداً مستمراً لاتقوه على أى أساس من الواقع ولا تصمد أمام النقد .

من هذا الموقف من اتجاهات الكتابة التاريخية الصهيونية تنتقل إلى التيارات الثقافية / السياسية التي توزعت بين يهود مصر في النصف الأول من القرن العشرين . فقد عاش اليهود في القاهرة والإسكندرية وعواصم الأقاليم ، وكانت نسبتهم في القاهرة سنة ١٩٤٧م حوالى ٦٤٪ وفي الإسكندرية ٣٢٪ على حين توزعت نسبة ٤٪ الباقية على باقى المحافظات حسبما ورد فى تعداد سكان القطر المصرى سنة ١٩٤٨م . وكان طبيعياً أن تتنوع التيارات الثقافية / السياسية بين اليهود فى أماكن وجودهم ، وكان طبيعياً أيضاً أن تتوزع انتماءاتهم السياسية نظراً لتنوع جنسياتهم وأصولهم العرقية وبنيتهم الثقافية . ولم يكن أمر ولاتهم السياسى مطروحاً حتى سنة ١٩٥٤م عندما وقعت " فضيحة لافون " أو العمليات الإرهابية التى أشرفت عليها ونفذتها المخابرات العسكرية الإسرائيلية ضد أهداف أمريكية وإنجليزية فى القاهرة والإسكندرية لإحراج حكومة ثورة يوليو والوقية بينها وبين الولايات المتحدة وإنجلترا . وقد شارك عدد كبير من اليهود المقيمين فى مصر فى هذه العملية التى عرفت باسم " عملية سوزانا " .

وقد اتخذ المؤلف هذه العملية مدخلاً لمناقشة مسألة هوية " اليهود المصريين " وانتمائهم وولائهم . ويقدم المؤلف إجابة تقوض الأساس الذى بنى عليه دراسته . إذ يقول إنه على الرغم من أن المتهمين فى عملية سوزانا وصلوا إلى إسرائيل بعد أربعة عشر عاماً قضاها فى السجون المصرية ليعلموا أنهم لم يعتبروا أنفسهم مصريين أبداً ، فإن الحكومة المصرية أعلنت وقتها أنهم مصريون يحاكمون لأنهم ارتكبوا جريمة ضد وطنهم . وفى رأى المؤلف أن التناقض بين الموقفين لاينفى حقيقة أن يهود مصر آنذاك كانوا متعددي الهوية والانتماءات بحيث لا يصدق عليهم أى من القولين .

ويبدو ارتباك موقف المؤلف من هذه المسألة واضحاً بسبب انحيازه وغايته من الدراسة التى شابها انعدام الموضوعية والسمة الانتقائية فى تناول الأحداث التاريخية ، فهو يعرض لارتباط اليهود بمصر منذ القدم حسب رواية العهد القديم (وهى رواية تفيض بالعداء ضد مصر

والمصريين على أية حال) ؛ بل إن كثيراً من الكتاب يقولون إن بعض طقوس اليهود وشعائهم ومفاهيمهم الدينية أخذوها عن مصر القديمة . ويخلص الكاتب من هذا إلى تأكيد شرعية الوجود اليهودى بمصر . ونحن نتفق مع المؤلف فى هذه الحقيقة التاريخية ولكننا نختلف معه فى دلالاتها ومغزاها . فاليهود الذين يحق لهم الإقامة بمصر هم اليهود المصريون الذين عاشوا فيها عبر عصورها التاريخية الطويلة ؛ وهم الذين يتحدثون العربية ويشاركون بقية المصريين هويتهم الاجتماعية والثقافية . أما اليهود الوافدون ، الذين لم يعتبروا أنفسهم مصريين أبداً ، مثل أولئك الذين شاركوا فى عملية سوزانا الإرهابية ، فليس لهم أى حق فى هذا .

ويذهب الكاتب إلى حد القول بأنه فى فترة ما بين الحربين العالميتين كان كثيرون من اليهود لا يرون تعارضاً بين كونهم صهاينة ، وكونهم مصريين ملتزمين !! وهو قول مردود بالحقائق التاريخية . فقد كانت صحيفة " الشمس " ، التى تأسست عام ١٩٣٤م وصاحبها سعد يعقوب مالكي المتمتع بالحماية الإيطالية ، من أهم أبواق الصهيونية . وقد تقدمت الجامعة العربية إلى إدارة المطبوعات بشكاوى عديدة ضد هذه الصحيفة المعادية للعروبة فأصدرت الرقابة العامة قرارها بتعطيل صحيفة الشمس اعتباراً من ١١/٦/١٩٤٨م .

أما صحيفة " التسعيرة " ، التى أصدرها يعقوب مزراحى سنة ١٩٤٤م بمساعدة فؤاد سراج الدين باشا ، فقد وقفت ضد الصهيونية واتخذت موقفاً وطنياً . وقد أصدر مزراحى جريدة " الصراحة " التى اتخذت موقفاً مماثلاً لموقف " التسعيرة " .

وكانت صحيفة " الكلم " التى تصدرها طائفة القرائين تتخذ موقف التجاهل من الحركة الصهيونية واقتصرت على نشر ما يتعلق باليهود المصريين إلى جانب ألوان الأدب . وبعد الثورة ساندت " الكلم " الثورة وتبعت أخبارها .

ومن المقارنة بين الصحف التى كان يملكها يهود مصريون والصحف التى كان يملكها اليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية يتضح أن المصريين تجنبوا التعامل مع الحركة الصهيونية فى غالب الأحوال وأن الأجانب هم الذين ساندوا الحركة الصهيونية ونشاطها فى مصر .

ويستخدم مؤلف الكتاب الذى ناقشه فى سياق هذه الدراسة منطقاً مقلوباً يفضح انحيازه وعدم موضوعيته ؛ فقد وضع جميع اليهود فى مصر أثناء الفترة السابقة على حرب ١٩٤٨ فى سلة واحدة باعتبارهم « اليهود المصريين » ، وهو تعريف لانواقفه عليه إطلاقاً . فقد كان اليهود المصريون هم الأقلية بين اليهود المقيمين فى مصر آنذاك . وبينما التزم المصريون بمصالحهم الوطنية فى مصر ، جنح الأجانب إلى تأييد الحركة الصهيونية . وعلى الرغم من ذلك فإن المؤلف يقول إنه عندما زادت حدة الصراع العربى / الصهيونى بعد الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ م ، لتصل إلى ذروتها بعد حرب سنة ١٩٤٨ م ، زادت حدة التعارض بين الالتزام الوطنى والارتباط بالحركة الصهيونية بحيث صار التوفيق بينهما أمراً مستحيلاً . بل إنه يذهب فى المغالطة إلى أبعد مدى حين يقول " عندما قامت مصر بغزو إسرائيل سنة ١٩٤٨ م تم اعتقال المثات من الصهاينة مع غيرهم من المعارضين ... "

ووجه المغالطة هنا أن إسرائيل لم تكن دولة شرعية قائمة بحيث تغزوها مصر ؛ وإنما العكس هو الصحيح ؛ إذ قامت عصابات الصهاينة باغتصاب أرض فلسطين بعد عشرات المذابح والاعتداءات على السكان المدنيين . كما أن اليهود لم يكونوا جميعاً من أنصار الحركة الصهيونية بحيث تزداد حدة التعارض بين التزامهم الوطنى وارتباطاتهم بالصهيونية . كذلك لم يكن اعتقال الصهاينة مجرد إجراء إدارى ليس له ما يبرره من جانب الحكومة المصرية آنذاك كما يزعم ، وإنما كانت الحكومة فى حالة حرب مع الصهاينة وعصاباتهم المسلحة ومن غير المعقول أو المقبول أن تترك الصهاينة فى مصر أحراراً .

يرى المؤلف أن اليهود فى مصر توزعوا بين ثلاثة تيارات هى " الطائفية - الوطنية - ثم تيار الحنين للماضى " ويعنى بالطائفية أنه تيار ذو جذور تاريخية يرى اليهود أنفسهم فيه باعتبارهم طوائف " أهل الذمة " . وقد تحدد الوضع القانونى لليهود باعتبارهم من أهل الذمة منذ الفتح الإسلامى لمصر . وكان على " أهل الذمة " عدة شروط للبقاء فى دار الإسلام تحت حماية المسلمين أهمها دفع الجزية ، التى كانت بمثابة ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر .

وباستثناء الجزية لم يكن على أهل الذمة قيود من الناحية النظرية ، كما تركت لهم حرية العقيدة ، وترتيب الشئون الداخلية للطائفة . وقد استمر الوضع التاريخي لليهود في مصر في إطاره القانوني باعتبارهم من أهل الذمة حتى سنة ١٩١٤م عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وسلختها عن الدولة العثمانية . وقد ظل أبناء اليهود المصريين الأصلاء يرون أنفسهم من هذا المنظور ويحظون بقدر كبير من التسامح والتعايش بينهم وبين المصريين المسلمين والمسيحيين .

هؤلاء المصريون الأصلاء كان تعدادهم سنة ١٩٤٨م حوالى عشرة آلاف فرد كان معظمهم يعيشون في القاهرة بأحياء الظاهر وعابدين ومصر الجديدة وقصر النيل والجمالية والأزكية والموسكى وباب الشعرية والوايلى . وتكرزت غالبيتهم في حارة اليهود التى كانت حيًا ينقسم إلى شياختين هما شياخة اليهود الريانين وشياخة اليهود القرائين ويتبع حى الجمالية ويرجع تاريخ حارة اليهود إلى زمن إنشاء حى الموسكى منذ حوالى مائة وستين عامًا . وقد عاش اليهود المصريون الناطقون بالعربية في هذا الحى منذ إنشائه سواء كانوا من الريانين أو القرائين.

ولأن الأجانب من اليهود كانوا من طائفة الريانين فإن الطابع الغالب على أبناء هذه الطائفة كان هو الطابع الأجنبى ، فقد كان هناك أربعون ألف يهودى بلا جنسية محددة بالإضافة إلى ثلاثين ألفًا يحملون جنسيات الدولة الأجنبية . وكان سلفاتور شيكوريل هو رئيس اليهود الريانين في مصر طوال فترة ما بين حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٥٦م . وكانت هناك تسعة مجالس للطائفة اليهودية موزعة على القاهرة والاسكندرية وعواصم المديريات .

أما القراءون فوجودهم قديم بمصر . ويعود أصلهم إلى القرن الثامن الميلادى حين دعا زعيمهم ومؤسس مذهبهم " عنان بن داود " (ت فيما بين ٧٩٠ - ٨٠٠م) إلى مذهب جديد نتيجة خلاف نشب حول منصب رئيس اليهود في الدولة العباسية زمن الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور . وكان بعض اليهود وأحبارهم قد تأثروا بالمعتزلة وأصحاب علم الكلام من المسلمين فأخذوا ينقدون تعاليم الريانين ويتحفزون للخروج على تعاليم التلمود ، وتزعم هذه

الحركة الفكرية ثلاثة من أحبار اليهود هم : إفرام وأليشع المعلم وحنوكة . ووجدوا في ثورة عنان بن داود فرصتهم فجعلوه رئيساً لحركتهم . ومنذ ذلك الحين عرفوا باسم " القرائين " أو " بنى المقر " إشارة إلى تمسكهم بالحرفى بالتوراة ورفضهم ما عداها من كتب التشريع اليهودى .

وقد عاش القراءون في مصر أكثر من ألف سنة . وكان معظمهم يعملون في تجارة الذهب والمجوهرات في النصف الأول من القرن العشرين . وفي عشرينيات هذا القرن تحول الأغنياء منهم إلى السكنى في أحياء مثل العباسية ومصر الجديدة وأخذوا ينهجون نهج الارستقراطية المصرية في اتخاذ اللغة الفرنسية وتبنى الثقافة الأوروبية . ولأن الأجانب منهم كانوا قلة ضئيلة فإنهم لم يختلفوا عن جيرانهم المسلمين والمسيحيين سوى في الممارسات الدينية ، كما أن أسماءهم كانت مصرية في غالبيتها . بل إن رئيس الطائفة بعد سنة ١٩٥٢ كان اسمه عبد العزيز خضر ، وهو اسم لا يكشف عن دين صاحبه . وكان القراءون يرون أنفسهم مصريين في ضوء وضعهم التاريخي واندمجوا تماماً في الثقافة المصرية والمجتمع المصرى .

وقد حمل بعض اليهود القرائين الجنسية الفرنسية أو الروسية على الرغم من أن آبائهم لم يغادروا البلاد إطلاقاً ؛ وذلك لأن إزدياد النفوذ الأجنبى في مصر آنذاك جعل من يحمل جنسية أجنبية في وضع أفضل من حيث فرص العمل والوضع الاجتماعى والمكانة السياسية والقانونية . وقد حاولت حركة الشباب الصهيونى " هى حالوتس " (الرائد) أن تقيم تنظيمًا صهيونيًا في حارة اليهود القرائين ولكن مسعاها لم ينجح كثيرًا . وقد بقى القسم الأكبر من أبناء هذه الطائفة في مصر ولم يهاجروا سوى في الستينيات .

وكان تيار " الطائفية " الذى يرى في اليهود أهل ذمة يسيطر على فكر هذه الطائفة التى رأى أبناؤها أنفسهم مصريين في ضوء هذا الوضع التاريخى .

وإذا كان القراءون قد اعتبروا أنفسهم مصريين بحكم وضعهم التاريخى وثقافتهم العربية فإن البورجوازية اليهودية العليا تعتقد أن عدم امتلاكها لهذه الروابط لا يقلل من كونهم مصريين أيضاً . إذ كانت عائلات قطاوى وموصيرى ذات النشاط الاقتصادى الواسع تقيم بمصر من زمن طويل . ولكن عائلات كثيرة من اليهود السفارديم جاءت إلى مصر في القرن التاسع عشر

وبعده وعمل أبنائها في مجال الوساطة التجارية بين أوروبا وأقاليم الدولة العثمانية . وبعد الاحتلال البريطاني أنشأوا شركات مع الأوربيين والمصريين . وفي فترة ما بين الحربين كان يوسف أصلان قطاوى باشا من أبرز اليهود وتولى إدارة شركة السكر المصرية في كوم أمبو - وتعاون مع عائلة سوارس وبعض الأجانب في تأسيس شركة كوم أمبو لاستصلاح الأرض الزراعية وزراعة المحاصيل النقدية . ومن خلال نشاط يوسف قطاوى باشا الاقتصادي استطاع أن يحوز لنفسه ولعائلته نفوذاً واسع المدى .

وقد تعاون قطاوى وشيكوريل مع طلعت حرب في مجال التجارة والصناعة ، وكان قطاوى نائباً لرئيس بنك مصر . وقد تمثل تيار الوطنية في شخصية قطاوى باشا الذي كان يعتبر نفسه " مصري الوطن يهودى الديانة " لأنه ينتمى إلى عائلة تمتد جذورها في مصر إلى القرن الثامن الميلادى . وقد عمل يوسف أصلان قطاوى باشا وزيراً في حكومة زيور باشا المالية للقصر في سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ م ، كما أن زوجته السيدة أليس كانت وصيفة لكل من الملكة نازلى والملكة فريدة . واستمرت عائلة قطاوى باشا تحتل مكانتها بين عائلات البورجوازية المصرية بين الحربين العالميتين .

هذا القطاع الذى تمثله عائلة قطاوى باشا في المجتمع المصرى كان يضم عائلات الطبقة البورجوازية المصرية (مسلمين ومسيحيين ويهوداً) ، وبسبب أوضاعهم المريحة اختار عدد كبير من البورجوازية اليهودية البقاء في مصر بعد حرب ١٩٤٨ م ، وبقي منهم عدد كبير حتى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ م ؛ بل إن معظم الذين تركوا مصر منهم لم يهاجروا إلى إسرائيل حسبما تذكر تقارير وكالة الهجرة الصهيونية .

بيد أن التيار الغالب في البورجوازية اليهودية في مصر لم يكن التيار الوطنى الذى يمثله رجل مثل يوسف قطاوى الذى كان يرى نفسه " مصري الوطن يهودى الديانة " ، وإنما كان يغلب عليه الطابع الأجنبى من حيث الانتماء الثقافى والسياسى ومن حيث ارتباط مصالحه الاقتصادية بمصالح البورجوازية الأوربية . فقد حدث منذ أواخر القرن التاسع عشر نوع من

"فرنجية" مجتمع رجال الأعمال في مصر أدى إلى سيادة اللغة الفرنسية وغيرها . وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى تبني اليهود للغة الفرنسية .

وقد أوضحت دراسة حديثة أن نسبة اليهود بالمدارس الفرنسية بالقياس إلى مجمل عددهم في المدارس الأجنبية بمصر (١٩٤٧ - ١٩٥٦ م) كانت تصل إلى ٧٩٪ ؛ وستنتج صاحب الدراسة أن هذه النسبة العالية تدل على أن اليهود كانوا في مصر يميلون إلى الفرنسية لغة وثقافة وأسلوب حياة .

وعلى الرغم من الثقافة الفرنسية ، أو الأوربية عموماً ، والروابط التي كانت تربط معظم البورجوازية اليهودية بخارج مصر ، فإن المؤلف وضع هذه الشريحة تحت تيار " الوطنية " !! .

أما التيار الذي أسماه " تيار الحنين إلى الماضي " ؛ فقد اختار " راحيل مكابى " مثله له . ومن الأمور العجيبة أنه عرض لكتابها " مصر بلدى " الذى تروى فيه قصة حياتها في مصر العشرينيات والثلاثينيات ، وفيه تقول إن " عالم المصريين كان بالنسبة لها عالمًا مخيفًا " . وكانت راحيل مكابى قد هاجرت من مصر إلى إسرائيل ، وانضمت إلى أحد الكيبوتسات ، ثم صارت في عصابات الهاجاناه ذات التاريخ الإرهابى الأسود .

ويحاول المؤلف تبرير هذا الموقف بالقول بأنه حتى زيارة السادات للقدس سنة ١٩٧٧م كان من الصعب على اليهود المصريين أن يذكروا شيئاً إيجابياً عن مصر ، ولكن الصورة تحسنت بعد ذلك .

الفصل الثالث يناقش تعامل السلطات المصرية مع اليهود ؛ هل كانوا " أهل ذمة " ؟ أم مواطنين ، أم " عناصر هدامة " ؟

بعد نهاية حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بدأت الحكومة الإسرائيلية والمنظمات اليهودية في الغرب الأوروبى والأمريكى حملة ضد مصر والبلاد العربية بشأن معاملة اليهود . وبلغت الوقاحة الصهيونية مداها في الاعتراض على منع النشاط الصهيونى في مصر ؛ وهو نشاط كان مباحاً حتى سنة ١٩٤٨م . ويميل المؤلف إلى اعتبار هذا الإجراء انتهاكاً لحقوق الإنسان باعتبار أنه

كان من المفترض ألا تتأثر حياة اليهود في مصر بالصراع العربي الصهيوني ، وباعتبار أن الدولة تمثل كافة مواطنيها الذين يشتركون في الحقوق والواجبات . وفي رأيه أنه كان من الظلم أن يلقي اليهود معاملة تتسم بالفرقة العنصرية !! .

ويحاول أن يرتدى ثوب الموضوعية فيقول إن المشروع الصهيوني نفسه يستند إلى مفاهيم غير ليبرالية ومفاهيم عرقية عن الأمة ؛ إذ لم يكن المشروع الصهيوني يسعى إلى تمثيل اليهود الموجودين فعلاً وإنما تمثيل " اليهودي الجديد " الذي سيتم خلقه في الدولة اليهودية . ولم يكن معاملة إسرائيل للأقلية السكانية العربية بها أفضل حالاً من معاملة اليهود في مصر فيما بين سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٥٦م .

وتكشف الدراسات الحديثة عن مدى وهن ادعاءات المؤلف ومزاعم الصهيونية على حد سواء . فقد عاش اليهود حياتهم الاجتماعية ومارسوا أنشطتهم الاقتصادية بشكل طبيعي في مصر آنذاك ؛ إذ عاش اليهود في القاهرة والإسكندرية ومدن الأقاليم بنسب تصل في القاهرة إلى ٦٥٪ وفي الإسكندرية ٣٢٪ وكانت نسبتهم في باقي المحافظات ٣٪ حسب تعداد الإحصاء السكاني لسنة ١٩٦٠م . وهي نفس نسب تواجدهم التي رصدها الإحصاء السكاني سنة ١٩٤٨م . وقد ظلت بحوزتهم أعداد المدارس والمستشفيات والمراكز الاجتماعية والصحف التي كانت ملكهم منذ فترة ما قبل حرب ١٩٤٨م . كما كانت لهم أنديتهم الخاصة ، واستمروا في تنظيم رحلاتهم الخاصة وتكوين فرق الكشف ... وما إلى ذلك .

ومن ناحية أخرى ، كان من حق اليهود الالتحاق بالمدارس الحكومية المصرية والجامعات والمعاهد العليا ؛ فقد بلغ عدد الطلاب اليهود بالجامعات والمعاهد العليا سنة ١٩٥٧/٥٦م مائة وسبعة وثمانين طالباً وطالبة حسب الإحصاء السنوي للتعليم في هذه السنة . وفي مدارسهم الخاصة كان من حقهم تدريس اللغة العبرية ومواد أخرى خاصة بالحياة الدينية والثقافية . بل إن المدارس اليهودية كانت تتلقى إعانة من الحكومة المصرية في شكل الأموال والإمداد بالمدرسين ووسائل التعليم .

أما صحفهم فقد استمرت فى الصدور حتى منتصف الخمسينيات ، كما كان لهم جمعية للدراسات التاريخية باسم جمعية مصر للدراسات التاريخية تأسست سنة ١٩٢٥م وتوقفت بعد سنة ١٩٤٨م بسبب عجز مواردها وليس بسبب تدخل السلطات المصرية . وقد شارك المثقفون والفنانون اليهود فى الحياة الثقافية والفنية المصرية ؛ فى الكتابة والمسرح والموسيقى والغناء والسينما .

وفى مجال النشاط الاقتصادى كان اليهود يشاركون فى كل مجال ؛ مثل تجارة الأقطان وتصديرها ، وتجارة الملابس والمواد الغذائية وتجارة الآلات الزراعية والصناعية ، والمبيدات الحشرية والمواد الكيميائية والمساعد والأجهزة الكهربائية والأدوية ... وما إلى ذلك من الأنشطة الصناعية وأعمال الخدمات والفنادق فضلاً عن أنشطة استصلاح الأراضى والزراعة . ولم تتعرض هذه النشاطات لأية مضايقات حتى حركة التأميمات سنة ١٩٦١م حين تم تأميمها مع غيرها من المؤسسات التى يملكها المسلمون والمسيحيون والأجانب .

أما الفلسطينيون الذين اغتصبت إسرائيل وطنهم واضطروا إلى البقاء داخل الكيان الصهيونى ، فقد ظلوا خاضعين للحكم العسكرى حتى سنة ١٩٦٥م ، كما تعرضت أراضيهم للمصادرات المتعددة لصالح مشروعات استيطانية صهيونية مثل " مشروع تهويد الجليل " ، فضلاً عن منعهم من عضوية الاتحادات النقابية وحرمانهم من فرص العمل والوظائف العامة .

لقد كانت هناك عدة أغراض وراء الدعاية الصهيونية التى جعلت " إنكار الحقوق اليهودية " جريمة ووصمة بالفاشية السياسية على حين تم إغفال حقوق الفلسطينيين والتعامى عما جرى لهم باعتبار أن ذلك كان من " عوارض تعمير الصحراء " ؛ إذ زعمت الصهيونية أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب .

وعلى الرغم من هذا كله فإن المؤلف يجنح إلى المغالطة والتشويش المتعمد عندما يتحدث عن مشاعر معاداة السامية فى مصر باعتبارها ظاهرة خاصة بالقرن العشرين نتجت عن الصراع العربى الصهيونى . ووجه المغالطة هنا أن معاداة السامية تهمة قد اختلقتها الدعاية الصهيونية

فى أوربا لأسباب تاريخية عديدة ، واستغلتها أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها وماتزال تستخدمها فى أوربا وأمريكا . ولكن هذه التهمة لاتصلح للابتزاز فى المنطقة العربية "السامية". ومن هنا فإن اتهامه للإخوان المسلمين و " مصر الفتاة " بمعاداة السامية بسبب موقفهم من اليهود الأجانب كلام يبعث على الرثاء .

والثير أنه يقول إن " غزو مصر لإسرائيل " سنة ١٩٤٨م لايمكن أن يكون بدافع من نزعة معاداة السامية !!! هل يمكن أن يكون هناك خلط وقلب للحقائق أشد وضوحاً ؟ .

صحيح أن حرب ١٩٤٨ بنتائجها السلبية قد حركت رأى العام والحكومة المصرية ضد الصهيونية ، ولكن غالبية اليهود لم يتأثروا بها بدليل أن أكثر من خمسين ألف يهودى بقوا فى مصر بعد سنة ١٩٤٨م . وظلت المؤسسات والشركات اليهودية تعمل فى مصر دونما تدخل؛ فالبنوك التى كان يملكها اليهود ، مثلاً ، ظلت تعمل حتى مابعد حرب ١٩٥٦م . إذ استمر نشاط " البنك التجارى المصرى " الذى أسسته أسرة قطاوى وأسر سوارس وغيرهم فى الاسكندرية سنة ١٩٢٠م حتى سنة ١٩٥٧م . كما أن " بنك موصيرى " الذى تأسس سنة ١٩٣٥م بتمويل من عائلة موصيرى اليهودية الإيطالية ، وبمشاركة عائلات هراوى وقطاوى وفرحات وشيكوريل حتى سنة ١٩٥٧م عندما صدر قانون قمصير البنوك الأجنبية . ويصدق هذا الكلام على بنك سوارس بالإسكندرية وفرعه فى طنطا ، وبنك زلحة

ويضيق بنا المقام عن حصر الأمثلة التى تدل على أن المؤسسات المملوكة لليهود ، مثل شركات التأمين والمحلات الاستهلاكية ، والشركات الزراعية والعقارية ، والشركات الصناعية والتجارية ظلت على حالها بعد الحرب بسنوات طويلة ، كما أن وضعهم الاجتماعى لم يتأثر بالحرب على الرغم من بعض الحوادث الفردية التى عبرت عن غضب الجماهير من اعتداءات الصهاينة .

قبل الثورة الفلسطينية الكبرى ٣٦ ١٩٣٩م كان التيار السائد بين المثقفين المصريين يرى اليهود جزءاً من الأمة المصرية . كما كانت التيارات السياسية العلمانية تفرق بين اليهودية

والصهيونية . أما جماعة الإخوان المسلمين فقد تعاملت مع قضية فلسطين باعتبارها قضية عربية إسلامية .

وبعد الحرب تصاعد الغضب ضد اليهود الأجانب ، فقد تم تدمير معبد اليهود الاشكنازيم بالموسكى بيد أن الملك فاروق استنكر الحادث وكذلك فعل النقراشى باشا رئيس الوزراء ، وعبد الرحمن باشا أمين عام جامعة الدول العربية ، وكذلك فعلت غالبية الصحف المصرية . وهو الأمر الذى يؤكد أنه لم يكن هناك تيار يعادى اليهود فى مصر .

مرة أخرى يتحدث المؤلف عن " غزو مصر لإسرائيل ومعها أربعة جيوش عربية أخرى ... " فى سياق مقلوب ، ويقول إن هذه الحرب ضيقت الخناق على اليهود الذين كانوا يعتقدون أن بإمكانهم أن يلعبوا دور الوسيط فى الصراع العربى / الصهيونى بسبب نفوذهم الاقتصادى وحریتهم الدينية الكاملة . ثم ينتقد موقف حكومة النقراشى التى منعت النشاط الصهيونى واعتقلت عدداً من المعارضين السياسيين بينهم عدد من الصهاينة واليهود الشيوعيين ، وتناسى حقائق الموقف السياسى والأمنى التى فرضت مثل هذه الإجراءات . بل إنه يتهم النقراشى بمعادة السامية لاتخاذ حكومته مثل هذه الإجراءات الأمنية .

لقد حدث فى ١٥ يوليو ١٩٤٨م أن أغارت الطائرات الإسرائيلية على حى القبة المجاور للقصر الملكى ، ودمرت عدداً من المنازل وقتلت عدداً كبيراً من الناس ساعة الإفطار فى شهر رمضان . وكان طبيعياً أن يتعرض اليهود الأجانب لموجات الغضب الشعبى التى استمرت بشكل متقطع حتى الثانى عشر من نوفمبر من نفس السنة .

وقد أدت حرب ١٩٤٨م إلى هجرة بعض اليهود من مصر ؛ فقد كان السفارديم يفضلون البقاء فى مصر ، على حين فضل يهود أوروبا الشرقية " الإشكنازيم " الهجرة . ومن ناحية أخرى كان فقراء اليهود يخرجون من مصر إلى إسرائيل على حين ذهب أغنياؤهم إلى بلاد أخرى .

ولكن طائفة اليهود القرائين المصرية ووطناً والعربية لغةً فضلت التمسك بهويتها المصرية . وعلى الرغم من نتائج حرب ١٩٤٨م بقى بمصر حوالى خمسين ألفاً يمارسون حياتهم بشكل

طبيعى فى شتى الجوانب فقد ظلت صحفهم ، وبنوكهم ، وشركاتهم ، ومؤسساتهم ، ومدارسهم كما هى . كما ظل اليهود على علاقة طيبة بالأسرة المالكة ، واحتفت صحيفة " الكليم " الناطقة بلسان القرائين بزواج الملك فاروق من السيدة ناريمان صادق . وظلت الطائفة على علاقة طيبة باللواء محمد نجيب بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

ومن ناحية أخرى ، كان هناك فنانون من اليهود فى كل مجال ، وقد اعتنق بعضهم الإسلام مثل الموسيقار داود حسنى ، والفنانة ليلى مراد التى كانت " سندريلا الشاشة المصرية " والتى اشتهرت إسلامها سنة ١٩٤٦ بعد زواجها من الفنان أنور وجدى .

ويلفت النظر فى هذا الموضوع أن المؤلف يجادل بأن اعتناق هؤلاء للإسلام لا يمحو هويتهم اليهودية . وهو موقف يوازى الموقف الصهيونى الذى يحاول الترويج لأسطورة العبقريّة اليهودية التى تظهر فى الأفراد لمجرد أنهم يهود ، ويرفض الاعتراف بتحول البارزين من اليهود إلى ديانة أخرى .

ومن الواضح أن المؤلف يتخذ موقفاً عدائياً من ثورة يوليو ؛ فهو يرى أن مجلس قيادة الثورة لم يكن يحترم حقوق الإنسان لأنه قدم المتورطين فى عملية سوزانا الإرهابية سنة ١٩٥٤م إلى المحاكمة !! .

عندما قام العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م تم اعتقال حوالى ألف يهودى نصفهم من الصميين وطردت الحكومة ثلاثة عشر ألفاً من الأجانب الذين يحملون الجنسية الإنجليزية والجنسية الفرنسية بينهم عدد من اليهود بالإضافة إلى خمسمائة يهودى آخرين . وقد بلغ مجموع اليهود الذين تركوا مصر بعد الحرب حوالى أربعة عشر ألفاً ومائة يهودى . وقد استمرت هجرة اليهود من مصر بحيث لم يبق فى مصر سوى سبعة آلاف يهودى سنة ١٩٦٧م .

يبدأ المؤلف الفصل الرابع بانحياز واضح ضد مصر إذ يقول إن خطاب السلطات المصرية فى عملية سوزانا الإرهابية ، التى نفذتها المخابرات العسكرية الإسرائيلية ضد المصالح الأمريكية

والإنجليزية فى القاهرة والإسكندرية سنة ١٩٥٤م ، أذان المصريين والعرب باعتبارهم من النازيين الجدد . ويبدو أن المؤلف وهو يهودى أمريكى ، لم يستطع التخلص من تأثير الرؤية الأمريكية المنحازة ذات المقاييس المزدوجة .

فمنذ حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م قامت آلة الدعاية الصهيونية ببلورة مفهوم فى أوساط يهود الولايات المتحدة الأمريكية يقول إن يهود مصر يعانون من اضطهادات تشبه الاضطهادات النازية . وقد اعتمدت الدعاية الصهيونية فى ذلك على المفاهيم الاستشراقية السائدة فى الولايات المتحدة والجهل الفاضح بحقائق الأمور فى المنطقة العربية ، فضلاً عن تداول الإشاعات ذوقاً روية عما يجرى على يهود مصر . وأدى تكرار الأكاذيب والمبالغات الصهيونية فى الأوساط اليهودية الأمريكية المعادية بطبيعتها لكل ما يتصل بالتراث العربى الإسلامى إلى ترسيخ الفكرة القائلة بأن نمطاً من النازية المعادية للسامية يجرى على يهود مصر والعالم العربى عامة .

وقد استجاب لهذه الدعاية النزقة عدد من المنظمات اليهودية الأمريكية التى أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن اليهود فى مصر ، واستخدمت فى خطابها مصطلحات تفوح منها رائحة المبالغة النزقة التى اعتمدت على مفردات كانت تستخدم فى الدعاية ضد الصهيونية .

وبعد أن اكتشفت السلطات المصرية الشبكة الجاسوسية والإرهابية التى قامت بالتفجيرات فى القاهرة والإسكندرية سنة ١٩٥٤م ، وتقديم المتهمين إلى المحاكمة ؛ تكرار هذا النمط من الدعاية الكاذبة واتهام السلطات المصرية بالنازية ومعاداة السامية . وعلى الرغم من أن القضية كانت قضية تخريب وتحسس واضحة من خلال الأدلة المادية والاعترافات التى أدلى بها المتهمون ، وعلى الرغم من أن كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة كانت تعرف أن المخابرات العسكرية الإسرائيلية هى التى نفذت العملية الإرهابية « سوزانا » ، فإن إسرائيل والولايات المتحدة واصلت الحرب الدعائية ضد مصر وضد ما أسمته "دكتاتورية ناصر" .

ومع أن الحكومة المصرية أكدت أكثر من مرة أن المتهمين مواطنون مصريون خانوا وطنهم وتآمروا ضده ، وأنهم يحاكمون بهذه الصفة ، وأن الطائفة اليهودية ليست متهمة بذاتها ؛ فإن الرأي العام فى بريطانيا والولايات المتحدة وكندا كان منحازاً للأكاذيب الصهيونية . وأخذ حكام إسرائيل وقادة المنظمات اليهودية يمارسون ضغوطهم على الولايات المتحدة وبريطانيا للتدخل فى المحاكمات . وفى عدد من المناسبات حاول اليهود الأمريكيون دفع حكومة الولايات المتحدة على التدخل لصالح الإرهابيين اليهود ولكن جيفرسون كافرى السفير الأمريكى نفى فى تقرير له أن تكون هناك حملة منظمة ضد الطائفة اليهودية المصرية .

ومع هذا واصلت الصحف الغربية حملتها الدعائية الكاذبة ضد مصر ومحاكمتها لليهود الذين شاركوا فى العملية الإرهابية بحيث نسى القراء أنهم اعترفوا بالتهم الموجهة إليهم .

ويتضح من تناول المؤلف لهذه القضية أنه غير قادر على الخروج من انحيازه اليهودى والقائم على أساس أن كل فعل ضد اليهود ، حتى وإن كان رد فعل لجرائمهم ، إنما هو دليل على معاداة السامية ؛ فقد اتهم جمال عبد الناصر بمعاداة السامية !! واتهم السفير الأمريكى كافرى بأنه كان قريباً من عبد الناصر ولاتهمه مصلحة اليهود ، ولم يتحرر المؤلف من ثقافة الابتزاز الصهيونية وقلب الحقائق فى تناوله لهذا الموضوع .

لقد التقت المصالح الصهيونية لدولة إسرائيل مع المصالح الاستعمارية للولايات المتحدة الأمريكية فى عملية سوزانا الإرهابية . فقد أزعج إسرائيل قيام ثورة يوليو وتوجهات زعماء الثورة الوطنية ، كما أن النزاع السياسى حول مبدأ أيزنهاور ، ونظرية الفراغ السياسى فى الشرق الأوسط ، بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية كان أمراً مزعجاً للأمريكيين ، وانتهزت الدوائر الصهيونية فرصة هذا التوتر لكى تصور مصر والعرب فى صورة العدو المشترك لكل من إسرائيل والولايات المتحدة .

وبلغت النظر أنه بعد صدور الأحكام فى هذه القضية زادت حدة الحملة الدعائية ضد مصر مع ازدياد التوتر مع الولايات المتحدة ، ورفض جمال عبد الناصر لسياسة الأحلاف فى المنطقة ثم عقد مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ م .

وبعد عشرين عاماً من هذه العملية الإرهابية اعترفت جولدا مائير رئيس الحكومة الإسرائيلية بأن العملية كانت من تدبيرها ولصالحها ، وأعربت مائير عن شعورها بالذنب لأن " أبطال العملية " لم ينالوا الاعتراف الذي يستحقونه من إسرائيل .

ننتقل إلى موضوع آخر وهو النشاط الصهيوني في مصر قبل سنة ١٩٤٨ م . فقد بدأ هذا النشاط مع مطلع القرن العشرين ، بيد أن القاعدة الاجتماعية للحركة الصهيونية في مصر كانت محدودة للغاية حتى سنة ١٩٤٣ م . فحتى ذلك التاريخ كانت الصهيونية تركز نشاطها على النواحي الثقافية والعلمية مثل إنشاء الصحف ودور النشر وتأسيس الجامعة العبرية بالقدس . ولم تكن هذه الأعمال تعتبر متعارضة مع الولاء لمصر حتى الثورة الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ م . وكانت أوضاع اليهود المريحة في مصر تجعل غالبيتهم يحجمون عن مساعدة الحركة الصهيونية . ولكن جهود الصهاينة القادمين من فلسطين سنة ١٩٤٣ م ، ونشاط الصهاينة بين قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، إلى جانب وجود الفيلق اليهودي الذي كان يعسكر على أرض مصر - كل هذا وفر قاعدة هامة للحركة الصهيونية للمرة الأولى .

وبدأ النشاط الصهيوني يتوسع في أوساط الشباب . وكانت منظمة " الحارس الصغير / هاشومر هاتزاعير " أكبر منظمات الشباب الصهيونية وأكثرها تنظيماً . وكانت مهمتها تأهيل الشباب اليهودي للحياة في مستعمرات الكيبوتس الصهيونية في فلسطين . وكانت أول مجموعة مصرية من خريجي هذه المنظمة هي تلك التي وصلت إلى مستعمرة " عين هاشوفيت " في يناير سنة ١٩٤٣ م لتدريبهم على الزراعة . ثم توالى مجموعات أخرى بعد ذلك ، وقد حارب عدد منهم ضد الجيش المصري سنة ١٩٤٨ م . وقد عاش أولئك اليهود بعد ذلك داخل إسرائيل واعتبروا أنفسهم إسرائيليين تماماً .

كان هناك عدد من الشيوعيين اليهود الذين خرجوا من مصر قد اتخذوا من باريس مستقراً ومقاماً . وترجع الإرهابات الأولى للحركة الشيوعية المصرية إلى نهاية الحرب العالمية الأولى عندما بدأت بعض العناصر الأجنبية بمدينة الإسكندرية تنظيم الجماعات الماركسية الأولى في

مصر . وقد تم تكوين " الحزب الاشتراكي المصري " الذى تحول فى سنة ١٩٢٢م إلى " الحزب الشيوعى المصرى " . وفى سنة ١٩٢٤م ضربت الحكومة هذا الحزب وقامت بتصفيته مما جعل العمل الشيوعى المصرى يتجه إلى العمل السرى من ناحية ، وضعف النشاط الشيوعى فى مصر حتى إعلان الحرب العالمية الثانية أواخر الثلاثينيات .

وفيما بين الثلاثينيات والخمسينيات أسهم اليهود بشكل كبير فى إعادة بناء وتنظيم الحركة الشيوعية المصرية ، وكان عددهم يزيد على ألف فرد من الناشطين الشيوعيين وكان أبرزهم " هنرى كوربيل " .

وهنرى كوربيل (١٩١٤ - ١٩٧٨م) هو الإبن الأصغر للمليونير يهودى هو دانييل نسيم كوربيل الذى كان يمتلك مصرفاً بشارع الشواربى ويملك قصرأ فى الزمالك بالقرب من نادى الجزيرة . وهو من أسرة أسبانية الأصل هاجرت زمن محاكم التفتيش أواخر العصور الوسطى إلى عدة دول منها إيطاليا التى عاشت بها أسرة كوربيل . وقد هاجرت الأسرة من إيطاليا إلى مصر سنة ١٨٥٠م حسبما يذكر هنرى كوربيل فى سيرته الذاتية لأن ظروف مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تشجع تدفق المراهين وغفيرهم من الباحثين عن فرض الكسب . فقد تمت تصفية الطابع الاستقلالى للاقتصاد المصرى الذى تحقق على يد محمد على . وأجبرت مصر على فتح أسواقها أمام البضائع الأجنبية دونما حدود بعد إلغاء دور الدولة فى إدارة اقتصاديات البلاد .

وكانت أسرة هنرى كوربيل تمثيلاً جيداً لنموذج اليهود المتصرين ؛ إذ كانت ذات ثقافة فرنسية وتحمل الجنسية الإيطالية ، وتعيش فى عزلة عن المجتمع المصرى وترتبط بالجاليات الأجنبية . بل إن علاقة الأسرة باليهود المصريين كانت فى حدود تقديم المعونات الخيرية فقط . وقد تلقى هنرى تعليمه فى مدارس الجزويت (اليسوعيين) بالفجالة وسط القاهرة . وقد ذكر هنرى كوربيل أنه كان من الصعب عليه أن يشعر بالارتباط فى بلد مسلم مثل مصر وأنه كان يرى أن فرنسا هى الوطن الوحيد الذى يشعر بالانتماء إليه . وقد عاش حياة ماجنة فى القاهرة

فى الثلاثينيات . وفى سنة ١٩٣٥م حصل هنرى كوريبيل على الجنسية المصرية رغم أن لغته العربية كانت ركيكة للغاية .

وقد تقلب هنرى كوريبيل فى عدة تنظيمات ضد الفاشية قبل أن يؤسس " الحركة المصرية للتحرر الوطنى " سنة ١٩٤٣م . وكان هناك يهودى آخر من ذوى الثقافة الفرنسية هو " هليل شوارتز " الذى ينحدر من أسرة يهودية رومانية استقرت بمصر سنة ١٩١٤م . واشتهرت هذه الأسرة باحتقار كل ماهو عربى ، وكان هليل شوارتز يرى فى مصر " بلداً بشعاً وكريهاً " وكون مع زمرة من أبناء البورجوازية المصرية ذوى الاتجاهات الفرنسية تنظيم " إسكرا " (الشرارة) الشيوعى على اسم جريدة لينين البلشفية ، وفى منتصف الأربعينيات كانت " إسكرا " أكبر تنظيم شيوعى فى مصر . وكان الطلاب اليهود بمدارس الصفوة الفرنسية يجندون زملائهم المصريين والمسيحيين للانضمام إلى هذا التنظيم من خلال مزيج من الأنشطة الثقافية ، السياسية والاجتماعية التى كانت تساعد الشباب من الجنسين على الاختلاط بحرية وبشكل يخرج عن التقاليد الاجتماعية السائدة . وكانت هناك علاقات جنسية كثيرة قبل الزواج وثنائيات مختلطة بين اليهود والمسلمين ، أو اليهود والمسيحيين فى أوساط إسكرا خاصة لدرجة أن المعادين للشيوعية والتنظيمات الشيوعية التى تنتقد النفوذ اليهودى فى الحركة الشيوعية المصرية اعتبرت هذا دلالة على الطبيعة الأجنبية للماركسية من ناحية ، وبرهاناً على سيطرة الأجانب على الحركة من ناحية أخرى .

ولما كان أقطاب الجماعات الشيوعية فى مصر الأربعينيات من ذوى الثقافة الفرنسية فقد نظروا إلى الحزب الشيوعى الفرنسى باعتباره قبلتهم . بيد أن الحزب الشيوعى الفرنسى رفض الاعتراف بأولئك البورجوازيين الأجانب ممثلين للشيوعية المصرية . كما رفضت الحركة الشيوعية الدولية الاعتراف بهم ، واعتبرتهم " شيوعيين لقطاع " - على حد تعبير الدكتور رؤوف عباس - وانتهازيين تحوم حولهم الشبهات .

ثم بدأت " الحركة المصرية للتحرير الوطني " ، التي أسسها هنرى كورييل فى تجنيد المصريين ، وتم بالفعل تجنيد عشرين فرداً . وكان كل منهم يتقاضى مكافأة شهرية قدرها ستة جنيهات . وليس هناك دليل واضح على مصدر الأموال التى كانت تنفق على المجلات والنشرات وإعداد " المناضلين " .

على أية حال حدث فى مايو ١٩٤٧م أن اندمجت " حمتو " (الحركة المصرية للتحرير الوطنى) وإسكرا فى اتحاد جمع بينهما " حدثو " (الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى) وكان هناك إثنان من اليهود فى اللجنة المركزية هما هنرى كورييل وهليل شوارتز . وعلى الرغم من الاتحاد فإن المواقف السياسية لحمتو وإسكرا ظلت متباينة فبينما كانت " حمتو " ترى فى معارضة الحركة الوطنية المصرية لهجرة اليهود إلى فلسطين نوعاً من معاداة السامية !! كانت " إسكرا " تحاول مقاومة الصهيونية .

وقد أجبرت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م الشيوعيين اليهود على مواجهة التداعيات السياسية للحرب وتحديد مواقفهم ؛ بالشكل الذى أدى إلى تفجير " حدثو " من الداخل بعد أقل من سنة . كان موقف " حدثو " من القضية الفلسطينية من صياغة هنرى كورييل الذى أيد إقامة دولة عربية يهودية واحدة أولاً ، ثم وصفه لحرب فلسطين سنة ١٩٤٨م بأنها " الحرب الإمبريالية الظالمة ضد دولة إسرائيل " . وعندما صدر قرار التقسيم أيدته " حدثو " ولم يشاركها فى هذا التأييد سوى الحزب الشيوعى العراقى .

وإذا كنا قد فصلنا إلى حد ما فى تاريخ اليهود الشيوعيين فى مصر ، فإن السبب فى ذلك راجع إلى أن المؤلف عرض لهذه القضية بشكل سريع . ويذكر المؤلف مرة أخرى أن مصر قامت بغزو إسرائيل سنة ١٩٤٨ !!! مما أدى إلى اعتقال الشيوعيين . وخرج معظم الشيوعيين اليهود من مصر إلى إسرائيل تنفيذاً لشروط هدنة رودس ، وبقي ثلاثة منهم هنرى كورييل الذى طردته السلطات المصرية ٢٤ أغسطس ١٩٥٠ إلى إيطاليا ، ثم لم يلبث أن هرب إلى باريس متسللاً ، وسرعان ما لحقت به مجموعة الشيوعيين اليهود المصريين وكونوا ما يسمى " مجموعة روما " سنة ١٩٥١م .

وقد أيدت مجموعة روما ثورة يوليو وموقف " حدتو " منها ، كما أيدت تأميم قناة السويس. وظل هنرى كورييل ورفاقه يلعبون دور الوسيط بين العرب والإسرائيليين ، وزاد نشاطهم بعد حرب ١٩٦٧م التى أعادت القضية الفلسطينية إلى بؤرة الاهتمام العالمى بعد طول غياب ، ووجدها اليهود فرصة جيدة للوساطة ، وتحدث عدد من " مجموعة روما " عن الفلسطينيين باعتبارهم شعباً وليسوا مجموعة من اللاجئين بحاجة إلى مساعدات إنسانية .

ولكن الأمر لم يتعد حدود تبادل الخطابات . وقام أحمد حمروش بزيارة لم تسفر عن شىء . وفى عام ١٩٦٩م تلقى هنرى كورييل من عدد من رفاقه القدامى بمصر يطلبون منه تحديد موقفه من الصراع العربى الإسرائيلى . وجرى لقاءات واجتماعات لم تسفر عن شىء .

فى مقابل الشيوعيين اليهود الذين استقروا فى باريس ، وهم عدد قليل من اليهود الذين هُجروا من مصر أو طردوا منها بعد حرب ١٩٤٨م ، يعرض المؤلف لخروج أبناء طائفة اليهود القرائين من مصر باعتبار هذا جزءاً من " الشتات الجديد " لليهود المصريين مثلما يقول عنوان الكتاب .

والكاتب منحاز إلى إسرائيل تماماً بحيث تغفلت منه (وربما كان ذلك قصداً منه) عبارات تشي بهذا الانحياز ؛ إذ إنه يتحدث عن أنه لم يكن فى إسرائيل سنة ١٩٣٩م سوى تسعة عشر فرداً من اليهود القرائين - إنه يتحدث عن إسرائيل باعتبارها كياناً موجوداً قبل سنة ١٩٤٨م . وعندما قامت الحرب سنة ١٩٤٨م بقى فى فلسطين يهودى واحد من القرائين لرعاية أملاكهم . ولم يتجاوز عدد القرائين الذين تركوا مصر فيما بين سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٥٦م مائة فرد بأى حال .

ويمكن تفسير موقف اليهود القرائين من الهجرة إلى إسرائيل فى ضوء حقيقتين غاية فى الأهمية : أولهما الوجود التاريخى الطويل لأبناء هذه الطائفة على أرض مصر باعتبارهم " أهل ذمة " من أبناء البلاد ، وقد ظل هذا الوضع ببنواتبه القانونية والاجتماعية والنفسية يحكم اليهود القرائين المصرون طوال فترة لا تقل عن ألف سنة . وثانيهما الاندماج الكامل لأبناء هذه

الطائفة في البنية الثقافية المصرية عبر تاريخها الطويل ؛ فهم يتحدثون العربية وصحفهم تنشر الأعمال الإبداعية الأدبية شعراً وقصصاً ومقالات أدبية مثلما كان حال صحيفة " الكليم " التي استمرت في الصدور ما بين ١٦ فبراير ١٩٤٥م حتى ٤ مايو ١٩٥٧م . وقد جسد هذا الموقف رئيس طائفة القرائين " إيلي يوسف مسعودة " في مقابلة مع الدكتور نبيل عبد الحميد في نوفمبر ١٩٨٩م بقوله : " أنا مصرى مائة بالمائة من جدود مصريين يمتد تاريخهم إلى أكثر من ألف سنة ، تخرجت من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٩م وعملت بوزارة التموين حتى وصلت إلى منصب مستشار الهيئة العامة للسلع التموينية قبل الخروج إلى المعاش سنة ١٩٧٧م .. " .

بعد سنة ١٩٥٦م تصاعدت هجرة اليهود القرائين من مصر إلى إسرائيل ولأن سياسة الوكالة اليهودية للهجرة والحكومة الإسرائيلية تتجه إلى تركيز اليهود القادمين من البلاد العربية في القرى التعاونية الجديدة والمدن النامية في أطراف البلاد ، فقد استقر اليهود القراءون في هذه المناطق . ثم انتشروا في عدة أماكن أخرى وتزايدت أعدادهم .

ولكنهم عندما وصلوا إلى إسرائيل فوجئوا بأن اليهود الريانين المتزمتين يشكون في يهوديتهم ولم تعترف الدولة بهم مما أخرج الصهاينة العلمانيين بيد أنهم لم يفعلوا شيئاً . ولذلك كان القراءون يفضلون البقاء في مصر إلا أن التطورات السياسية نزلت بأعدادهم إلى حد كبير . ولم يذهب غالبية اليهود القرائين الذي هاجروا من مصر إلى إسرائيل وإنما استقرت جماعة كبيرة منهم في منطقة خليج سان فرانسيسكو حيث تعيش الآن مائة وثلاثون عائلة بالإضافة إلى ثلاثمائة عائلة أخرى تعيش في أماكن مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية .

مع هذا فإن المؤلف يتحدث عن جماعة سان فرانسيسكو باعتبارهم من " اليهود المصريين " !!

الفصل الثامن من هذا الكتاب يحمل عنوان " استعادة هوية اليهود المصريين " ، وهو عنوان على التناقض والارتباك البادى في صفحات هذا الفصل ؛ فقد ختم الكاتب حديثه في الفصل السابق بالقول إن " دعم اليهود المصريين لإسرائيل كان من أهم ملامح يهوديتهم " دون

أن يجد حرجاً فى هذا التناقض المثير . وهو يكرر هذا التناقض عندما يتحدث عن جماعة من الغرباء الذين كانوا يقيمون بمصر ثم رحلوا عنها إلى إسرائيل واندمجوا فى الكيان الصهيونى ، وحاربوا مصر ، ويقول إنهم قد استعادوا هويتهم المصرية . وفى تقديرى أن المسنين من طائفة اليهود القرائين المهاجرين هم فقط الذين ينطبق عليهم هذا القول .

لقد حاول أولئك الذين يصفهم المؤلف بأنهم " يهود مصريون " أن يؤكدوا هويتهم فى إسرائيل من خلال موضوعين رئيسيين : ١ - الزعم بأنهم كانوا نشطاء فى الحركة الصهيونية أثناء وجودهم فى مصر ، ٢ - الادعاء بأنهم كانوا ضحية الاضطهادات المعادية للسامية فى مصر !!! .

ونشر عدد من اليهود المهاجرين من مصر عدة كتب فى إسرائيل فى هذا الاتجاه ؛ بل إنهم أسسوا منظمة باسم " منظمة ضحايا الاضطهادات المعادية لليهود فى مصر " زعمت أن يهود مصر قد مروا بمعاناة تشبه ما جرى على يهود أوروبا . وعلى الرغم من هذا فإنهم حاولوا أن يلعبوا دوراً بعد زيارة السادات لإسرائيل .

وعندما نجح الليكود فى انتخابات سنة ١٩٧٧م شجعت الحكومة مؤيديها على إعادة كتابة تاريخ الصهيونية بشكل يتفق مع هوى اليهود الشرقيين الذين يعتمد الليكود على أصواتهم الانتخابية . وأدى ذلك إلى إعادة توثيق تاريخ يهود المنطقة العربية . وتمثلت خلاصة هذه المحاولات فى ترسيخ الادعاء الصهيونى القائل بأن اليهود العرب ، ومنهم المصريون بطبيعة الحال ، تعرضوا لاضطهادات مماثلة لما جرى على يهود أوروبا ، كما أنهم تأكدوا من أن الحل الصهيونى والهجرة إلى إسرائيل كان الحل المثالى .

إن ماحدث ببساطة كان إعادة صياغة وتزويراً لتاريخ اليهود فى مصر بالشكل الذى يُسهّل اندماجهم فى الكيان الصهيونى ، وبحيث يكتسبون " الفضائل " الصهيونية التى تجعلهم يقفون على قدم المساواة مع يهود أوروبا .